صورة الرسول محمد ﷺ في شعر عصر صدر الإسلام

أ.م.د عبد العظيم فيصل

كلية التربية / قسم اللغة العربية

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيد الأنام محمد بن عبدالله وعلى اله وصحبه اجمعين وعلى من سار على نهجه إلى يوم الدين.

وبعد:

فقد كان الأدب وما يزال يحتل مكانة متميزة في نفوس العرب فهو المصور لحياتهم بمختلف جوانبها الدينية والاجتماعية والسياسية ،ولهذا نلحظ أن الأدب العربي لم ينقطع على مر العصور في تصوير الأحداث والوقائع بمختلف اشكالها.

وتأسيسا على ذلك برز اثر الأدب بقسميه الشعر والنثر في عصر الرسالة المحمدية ، حينما شجع الرسول الأعظم محمد ﷺ الشعراء والخطباء على قول الشعر والنثر من أجل مناصرة الدعوة الإسلامية وتوظيف الأدب وتوجيهه الوجهة الصحيحة من أجل خدمة الدين الجديد.

وأصبح الشعر سلاحا فاعلا في خدمة الرسالة السماوية ، لذا حث الرسول الكريم على قوله وتوجيهه من أجل بناء ونشر الدعوة الإسلامية فقال ﷺ: (ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم)(١) لأنه يعلم مكانة الشعر في نفس العربي ، ولهذا شرع شعراء الدعوة في قول الشعر الذي يدعوا إلى مناصرة الرسول ونبذ الشرك وحث المجتمع على الدخول في هذا الدين .

هذا في حياته ﷺ ، أما عندما انتقل إلى الرفيق الأعلى فقد تقرحت الأكباد وأصبحت الأشعار تقطر دما لهذا المصاب الجلل وتلبدت السماء بالغيوم وأضحت الأمة الإسلامية مريضة لذلك المصاب الأليم ،وبدأ الشعراء يرثون الرسول بمعان وألفاظ جديدة منها انقطاع الوحي وانه الهادي والمرشد للأمة الإسلامية فضلا عن المعاني الموروثة ومنها التفجع والحزن الأليم .

فقد وضَح الشعراء مكانة الرسول ﷺ عن طريق الأغراض التقليدية منها المديح ، والفخر ، والرثاء ، ولكن بألفاظ لم تكن معهودة من قبل وإنما هي ألفاظ إسلامية جديدة ـ إن صح التعبير ـ مما يؤكد أن الأدب العربي أدب حي ومتطور تبعا لتطور الأحداث والأوضاع الجديدة .

وقد دعتني إلى دراسة هذا الموضوع اسباب عدة منها : إن هذا الموضوع ـ فيما أعلم . لم يدرس في هذه الحقبة من الزمن (عصر صدر الإسلام) ، وكذلك لإظهار الصفات والشمائل التي انماز بها نبي الرحمة المهداة في وقت تكالب فيه الكفار والحاقدين على ديننا الحنيف ونبينا الأعظم ومحاولة الإساءة إلى شخصه الكريم ، حاشاه ان يغيروا من سيرته العطرة وشمائله المباركة .

فحري بنا نحن المسلمون أن نرد على تلك الأقاويل الباطلة والمزيفة التي تريد النيل من الإسلام والمسلمين ،وان نبين مدى تمسك المسلمين منذ فجر الدعوة الإسلامية بشخصه الكريم، وحتى يومنا هذا وان نبين هذه الصورة المشرقة والوضاءة للرسول محمد ﷺ فهي التي انارت الطريق للإنسانية جمعاء ليعم الخير والأمن والامان في ارجاء المعمورة .

اما المنهج الذي اتبعته في هذه الدراسة فهو استقرائي تحليلي للنصوص للنصوص الشعرية التي تحوي صور النبي ﷺ.

تقوم هذه الدراسة على اساس موضوعي لعناصر الصورة التي توشح واتصف بها الرسول محمدﷺ في الأشعار التي قيلت في عصر صدر الإسلام .

تتوزع الدراسة على قسمين وخاتمة يسبقهما مقدمة وتمهيد :

وبينت في التمهيد مفهوم الصورة عند بعض النقاد القدامى والمحدثين ، ولماذا اخترت لفظة (الرسول) ؟

اما مضمون البحث فيتضمن القسم الأول: صورة الرسول محمد ﷺ في الأشعار التي قيلت في حياته ، أما القسم الثاني : صورة الرسول محمد ﷺ في الأشعار التي قيلت بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

التمهيد

مفهوم الصورة

اهتمت الدراسات القديمة و الحديثة بالصورة لأنها تعطي مدلولا واضحا لما يراد التعبير عنه باقل ما يمكن من الالفاظ وقوام هذه الصورة ليس الزخرفة وإنما الكلمات الناطقة التي توضح الموقف المراد بيانه .

دلالة الصورة في اللغة

وردت لفظة الصورة في معاجم اللغة فقد قال ابن منظور:(في اسماء الله تعالى(المصور)وهو الذي صور جميع الموجودات ورتبها فأعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيئة مفردة يتميز بها على اختلافها وكثرتها)[٢]

دلالة الصورة في الاصطلاح

تناول النقاد القدامى والمحدثين مفهوم الصورة عن طريق الأفكار التي بثوها بين ثنايا كتبهم، ولم يكن ذلك مقتصرا على النقاد فقط وإنما تجاوز إلى الشعراء في العصر الإسلامي حين بثوا الصورة في أشعارهم لما لها من مكانة متميزة في اظهار جماليات النص الشعري ، والتأثير في المتلقي ،فقد وردت لفظة الصورة في شعر حميد بن ثور حين قال[٣] :

فلو أن عودا كان من حسن صورة يسلم أو يمشى مشى أو لسلما

ولعل الجاحظ أول من أورد لفظة التصوير من النقاد القدامى حينما أراد أن يعرف الشعر فقال: (إنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير)[٤]فهي تمثل مرحلة النضوج للشاعر الذي يصب فيها عصارة فكره ومخيلته وهي تجسيد(المعاني والأفكار في عقل الأديب وإبرازها في أساليب بيانية تنهض بما ينهض به فن التصوير خطوطا وألوانا وظلالا)[٥].

إن للصورة أهمية كبرى في النص المراد الكشف عنه (وتلخص الصورة تجربة ما إزاء الموضوع المعبر عنه ، فهي نتاج تمثل الشاعر لجوانب الموضوع وزواياه ، ومنطلقه في الكشف عن ماهيته وسبر أغواره العميقة، لأن تلك الماهية ترتبط بفلسفة الروح المعبرة التي تلجأ أحيانا إلى الترميز، وأحيانا أخرى إلى التلميح أو التصريح)[٦] ،فالصورة إذا قد تكون رمزية يشير إليها الشاعر بخيوط أو اطراف بسيطة أو عميقة بارزة فيها تلك الصفات بكثافة، وقد قال بعض الباحثين ، إن الصورة (رسم قوامه الكلمات المشحونة بالإحساس والعاطفة)[٧] اي أن مقومات هذه الصورة هي الألفاظ التي تلازمها العواطف والمشاعر والأحاسيس الصادقة التي تجعل من الصورة أكثر ايحاء في نفس المتلقي .

وقد قيل عن أهمية الصورة : (تعد أهمية الصورة الشعرية والقيمة الحقيقية لها بوجودها في ضمن سياقات التشكيل الشعري الذي يساعدها على إخراج دلالات ذات مستويات متباينة تظهر مدى عمق التجربة الفنية في العمل الإبداعي)[٨] إذاً فالصورة هنا لها مكانة متميزة في إظهار عمق التجربة الفنية ولم يتوقف تأثيرها على المتلقي فقط ،وانما شملت النص ذاته .

ومما تتماز به صورة الرسول محمد ﷺ في هذه الحقبة هي صور حقيقية وواقعية وذلك لأن الشعراء رأوا الرسول عن قرب وسمعوا منه الأحاديث التي بينت جزءا من شخصه الكريم وصفاته العظيمة . فهي صفات تخلو من المبالغة ،لأن الرسول لم يكن شخصا أو إنسانا عاديا وإنما كان منزها من الخالق سبحانه وتعالى ، كما انه لم يكن بحاجة إلى المديح ولم يدعو له ، لذلك نرى صورة الرسول تتصف بالواقعية ، وإن الشعراء مهما وصفوه لا يمكن أن يصلوا إلى صفاته وشمائله المباركة .

القسم الأول:

صورة الرسول محمد ﷺ في الأشعار التي قيلت في حياته:

من الأغراض الشعرية التي كان لها صدى في نشر مبادئ الدين الحنيف الفخر، وهو من الأغراض الشعرية التي لها مكانة متميزة في نفس العربي في عصر ما قبل الإسلام ، وقد أصبح له دور كبير في عصر صدر الإسلام حينما وظف من أجل خدمة الدعوة ونشر مبادئ الدين الإسلامي بعد أن كان فخرا ذاتيا أو قبليا فأصبح الفخر بالمسلمين والذود عن حما الإسلام ، قال ابو طالب مفتخرا بالنبي محمد ﷺ [٩]:

إذا اجتمعت يوما قريشٌ لمفخرٍ فعبدُ منافٍ سرها وصميمهـا
وإن حصلت أشراف عبد منافها ففي هاشمٍ أشرافها وقديمـــها
وإن فخرت يوما فان محمـدا هو المصطفى من سرها وكريمها
وأقربها قربى إلى الله والذي به تكشف الظلماءُ درسا نجومـها
تداعت قريش غثُّها وسمينها علينا فلم تظفر وطاشت حلومـها

فقد رسم ابو طالب صورة مادية للرسول فقد جعله قريبا من الله (سبحانه وتعالى) وبه تزول تلك الظلمة، إذ صور مجيء الرسولﷺ لينقذ البشرية من الجهل إلى النور وهو الذي يزيح ويزيل ذلك الظلام (ومحاولته الخلاص من الظلمة(الدجى)،والخروج إلى النور، والظلمة هنا ليست الظلمة الكونية)(١٠) وإنما ظلمة الجهل وعدم المعرفة ،أما النجوم فهي الهداية ،فهي صورة مرئية لم تكن مألوفة من قبل وذلك من اجل تأكيد نبوته ودفاعه عنه ،وفي المقابل فقد رسم صورة لجمع قريش وكيف تداعت على المسلمين لكنها لم تجن شيئاً سوى الخيبة والهزيمة، إذ استمد الشاعر من عناصر الطبيعة(الظلماء، النجوم) مادة خصبة لرسم الصورة المراد توضيحها ،لأن فيها من التضاد ما يشبع الصورة وضوحا إذ النجوم تجلي ذلك الظلام الدامس وكذلك الرسول محمد ﷺ يزيل ما تعلق في ذهن الإنسان من عبادة جاهلية إلى سواء السبيل ،والهدف وبذلك أصبح الإنسان مبصرا بما يراد تحقيقه من اهداف الإسلام كما افتخر الشعراء بتلبيتهم نداء الرسول ﷺ وتنفيذ اوامره ،و في ذلك قال كعب بن مالك يرد على هبيرة بن ابي وهب المخزومي في احد [١١] :

وفينا رسول الله نتبع امره إذا قال فينا القول لا نتطلع

وعندما حاكت قريش القصص والاقاويل بشأن الرسول فقالت شاعر وساحر ـ حاشاه أن يكون كذلك ـ فقد ورد ذلك على لسان المشركين في القرآن الكريم حين قال: (يقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون)[١٢]صوَر ابو طالب ذلك في شعره وقال يمدح النبي [١٣]:

زعمت قريش أن أحمد ساحر كذبوا ورب الراقصات إلى الحرمِ
ما زلت أعرفه بصدق حديثه وهو الأمين على الحرائب والحرم[١٤]
بهتوه لا سعدوا بقطر بعدها ومضت مقالتهم تسير إلى الأممِ

في هذا النص ابطل ابو طالب ما كانت تزعم قريش قبل إسلامها من صورة للرسول الأعظم ﷺ ، كما ذكر بعض الصور التي كانت تسميه بها قريش قبل الإسلام وهو الصادق الأمين وهو مازال ينماز بها ، إلا ان قريشا بدأت تبث الأقاويل والإعراض عما كان يريد نشره من الأمن والسلام والمحبة في هذا الدين الجديد وذلك لأنه يخالف ما كان يعبد آباؤهم من اصنام واوثان . كما قال [١٥]:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل

فقد صور لنا أبو طالب الرسول ﷺ بنصاعة بياضه ولم يكن المراد بذلك الصورة الخَلقية وإنما الصورة الخُلقية لما يتحلى به من عفة وأمانة وصدق و(يستخدم الشاعر دلالة اللون لتوضيح جوانب الصورة ، فدلالة اللون الأبيض ترمز إلى الطهر والنقاء)(١٦) كما اعتمد في رسم صورته على عناصر الطبيعة(يستسقى الغمام) ليبرز الصورة الاجتماعية للرسول، كما ابرز صورتان وهما(ربيع اليتامى) و(الهلاك) فقد اوضح الصورة الاولى بانها في نعيم وفضل كبير لرعايته لهم والصورة الأخرى الهلاك قد لجأوا اليه ليعمهم النعيم، فهو ملاذ المحتاجين ليس لبني هاشم فحسب بل جاء رحمة للناس كافة ، كما جاء في الذكر الحكيم : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (١٧) ففضل النبي تعدى النطاق الضيق ليعم الخير في أرجاء الأرض جميعها فهو مرسل من الله للناس كافة .

ونلحظ هنا أن أبا طالب مدح الرسول بصفات معروفة في عصر ما قبل الإسلام وذلك لأن نسبة كبيرة من قريش لم تسلم بعد فعندما يمدحه بصفات إسلامية لم يؤثر فيها هذا النوع من الشعر فلجأ إلى ذلك، لأنه يعلم مدى تأثير ذلك في نفوسهم .

وقد روى ابن سلام في طبقاته ان الصحابي ، عبدالله بن رواحة ،قال: (مررت بمسجد رسول الله ﷺ وهو في نفر من اصحابه ، فأضب القوم : يا عبدالله بن رواحة ، فعرفت ان رسول الله ﷺ دعاني ، فانطلقت اليهم مسرعا ، فسلمت ، فقال : ها هنا . فجلست بين يديه فقال . كأنه يتعجب من شعري : كيف تقول الشعر إذا قلته ؟ قلت انظر في ذلك ثم اقول . قال فعليك بالمشركين)(١٨) ، فقال عبدالله بن رواحة(١٩) :

نجالد الناس عن عرض فنأسرهم ... فينا النبي وفينا تنزل السور
وقد علمتم بأنا ليس غالبنا ... حي من الناس إن عزوا وإن كثروا
يا هاشم الخير إن الله فضلكم ... على البرية فضلا ما له غير
إني تفرست فيك الخير أعرفه ... فراسة خالفتهم في الذي نظروا
ولو سألت أو استنصرت بعضهم ... في جل أمرك ما آووا وما نصروا
فثبت الله ما آتاك من حسن ... تثبيت موسى ونصرا كالذي نصروا
أنت الرسول فمن يحرم نوافله ... والوجه منه فقد أزرى به القدر

فاجأنا الشاعر في اللفظة الاولى من البيت الأول بلفظة(نجالد)وفيها يظهر مدى المعاناة والمقاومة العنيفة بين الفريقين ،كما يبين التكلف والصلابة بين جمع المسلمين يقودهم الرسولﷺ وهم يواجهون معارضة شديدة من جمع المشركين لكن مقاومة المشركين لا تساوي شيئا أمام عقيدة الإيمان والمبدأ ، وأن فيهم رسول الله وعليه ينزل جبريلعليه السلام يبلغه رسالات ربه وهي صورة غيبية خاصة بالرسول محمدﷺ لم نراه نحن أبناء البشر، كما رسم لنا صورة أخرى وهي إن رسولنا الكريمﷺ كالنبي موسى عليه السلام بما لاقى من صد عن دعوته وبما لاقى من العذاب وقد(ظلت سيرة الرسول ـ ﷺ ـ وإخوانه من الأنبياء ـ

عليهم السلام ـ ... هي المرجعية الدينية التي يحاول الشعراء تأسيس صورهم وفقا لها)(٢٠)،وبذلك فقد رسم صورة للرسول الأعظم شبيهة بصورة النبي موسى ، كما رسم صورة أخرى لقوم الرسولﷺ وهي مقاتلة المشركين ببسالة وشجاعة لا تكافئها شجاعة وذلك لوجود النبي محمدﷺ بينهم ، لأن النصر للمسلمين مهما كان حجم الفئة الأخرى وعددها، وان ذلك هو نصر الله(جل جلاله) من اجل ان يعز به نبيه الأكرم والمسلمين الذين يناصرونه ،وبذلك فقد أشار بصورة غير مباشرة إلى انتكاس الفئة الأخرى التي عارضت الرسول ﷺ وقومه .

إن معاني الرسالة المحمدية قد تشربت في نفس عبد الله بن رواحه لأنه صادق الإيمان وقد انماز شعره بشيوع المعاني الدينية فيه[٢١] ،فقد جعل صورة الرسول هنا محاطة بالتقديس من الله سبحانه وتعالى وان نصره بأيدي عزيز مقتدر.

أما من حيث الألفاظ ،فأنه كرر بعض المفردات في البيت الشعري الواحد وذلك لكي يضفي ايقاعا يشد من انتباه المتلقي على النص منها :(فضلكم ، فضلا ،تفرست ،فراسة، فثبت ، تثبيت ،نصرا ،نصروا) ،علما بأنه قد قال الشعر ارتجالا في حضرة الرسول ﷺ مما يؤكد مقدرة الشاعر في قول الشعر في ضوء التوجيهات الجديدة التي يمر بها الدين الجديد.

وذلك قوله[٢٢] :

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقـــع

إذ رسم الصحابي الجليل عبدالله بن رواحة صورة إسلامية لرسولنا الكريم محمد ﷺ فهو المتمسك بالقرآن جملة وتفصيلا وهو الذي انقذ البشرية وانار لهم الدرب ، وقد وردت هذه الصورة كثيرا في الشعر الإسلامي .

فقد شبه وصور ما جاء به الرسول من الهدى بالذي لم يبصر فجاءته آيات ربه فأصبح بفضل الله ورسوله مبصرا يرى طريق الحق والهداية ، كما شبه حالهم قبل مجيء الرسول بصورة الأعمى الذي لا يرى شيئا فيتخبط بمن حوله فهي صورة بصرية .

اما الشاعر العباس بن مرداس فقد بعث رسالة شعرية إلى عروة بن مسعود الثقفي يوم حُنين ، يذكر فيها فضل الرسول في نشر الرسالة وأنه سينتصر مهما لاقى من مجابهة وقد شبه بالنبي موسىعليه السلام، فقال[٢٣] :

وعروة إنما اهدي جوابا وقولا غير قولكما يسير

بان محمد عبد رسول لرب لا يضل ولا يجور

وجدناه مثل موســـى فكل فتى يخايره مخير

نلحظ أن الشاعر أراد أن يصور مكانة النبي محمد ﷺ بين المسلمين وانه حق في نشر الرسالة الذي بعثه بها الله سبحانه وتعالى ، وقد استلهم الشاعر قصة النبي موسىعليه السلام مع فتاه في بحثه عن

الرجل الصالح ليتعلم منه والتي وردت في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ [٢٤] ، فالشاعر اقتبس من القرآن الكريم المعنى المراد إيصاله إلى المتلقي أن النبي محمد ﷺ كإخوانه من الأنبياء يحمل رسالة يجب تبليغها وإيصالها إلى البشرية جمعاء ، وبذلك فان الشاعر هنا شارك في إعلان الرسالة المحمدية .

فقد شبه الشاعر نبينا الكريم بالنبي موسى عليه السلام ليؤكد التلاحم والاعتراف بالأنبياء والرسل الآخرين وكذلك الاعتراف بالأديان السماوية الاخرى .

وحين أسلم العباس بن مرداس ولحق بالنبي ﷺ قال [٢٥]:

ووجهت وجهي نحو مكة قاصدا ... وتابعت بين الأخشبين المباركا
نبي أتانا بعد عيسى بناطق ... من الحق فيه الفصل منه كذلكا
أمينا على الفرقان أول شافع ... وآخر مبعوث يجيب الملائكا
تلافى عرى الإسلام بعد انفصالها ... فأحكمها حتى أقام المناسكا
رأيتك يا خير البرية كلها ... توسطت في القربى من المجد مالكا
سبقتهم بالمجد والجود والعلا ... وبالغاية القصوى تفوت السنابكا
فأنت المصفى من قريش إذا سمت ... غلاصمها تبغي القروم الفواركا

بدأ الشاعر يرسم لنا المكان (مكة وما أحيط بها من جبال)الذي سار فيه إلى الرسول ليعلن إسلامه ليؤكد دون ريبة أو شك انه مر بهذه المواقع ، إذ للدلالة المكانية الاثر الكبير في نفس المتلقي ،لاسيما إذا عرفنا من دلالة دينية لهذين الجبلين تتراءى لنا عندما سأل الخالق(سبحانه وتعالى)رسوله الكريمﷺ أن شاء يطبقهما على المشركين، لكن رسولنا الكريم عفى عنهم فهو الرحمة المهداة، ثم يأتي إلى الغرض الرئيس وصف الرسول بصور متقابلة وهي(أول شافع ـ وآخر مبعوث ،ناطق ـ يجيب) وهي صور خاصة بالرسول ﷺ ، ثم أكد عمق هذه الصور بصورة مادية عن طريق حاسة البصر حينما قال(رأيتك ، توسطت ،سبقتهم) وهذه الألفاظ ذو مدلول مادي رسمه لنا الشاعر عن طريق الألفاظ .

والعباس بن مرداس الشاعر الفارس المدافع عن عرى الإسلام بسيفه ولسانه رسم صورة بهية للرسول الأعظم ﷺ وذلك من خلال تفضيله على الناس أجمعين فهو المبارك ، صاحب المجد التليد، الصادق الأمين، أول شافع ومشفع لهذه الأمة، وخاتم الأنبياء والرسل، وقد جاء بلفظة (الملائكة) وهي لفظة لها مدلول إسلامي وهم (خلق من خلق الله عز وجل ،روحاني على ما رواه العلماء وأتت به الأخبار عن النبي ﷺ)[٢٦] إلا ان هذه اللفظة لم ترد كثيرا في شعر صدر الإسلام (ولعل هذا يعود إلى الشعراء أنفسهم الذين لا يكثرون الحديث عن الأمور غير المحسوسة أو المرئية لا سيما ما يتعلق بالغيبيات)[٢٧] وبذلك فقد رسم صورة غيبية لم نكن نشهدها نحن أبناء البشر ليؤكد ما جاء به الرسول الكريم ﷺ وهو بذلك يدعو للتمسك بهذا الدين الجديد ، كما صوره بصفات يعتز بها الإنسان العربي وهي الكرم و الجود

وهي من الصور الاجتماعية ، وهو الصفوة المختارة من قريش إذ جاء بلفظة(المصفى) ليدحض بها سادات قريش الذين لم يسلموا بعد ،وبذلك فقد وظف هذه اللفظة في أكثر من معنى إذ هو سيد قريش للذين أسلموا والذين لم يسلموا وهو تصوير سياسي واجتماعي قبلي ان صح التعبير .

ومن الصور والفضائل المعنوية التي شبه بها الشعراء ما جاء به الرسول من هداية وخلاص من الهلاك بالنور الذي يضيء الطريق ليتجنب ما فيه من معوقات وهي الآثام والمعاصي ، قال كعب بن مالك يوم بدر [٢٨] :

فينا الرسول شهاب ثم يتبعـــه نور مضيء له فضل على الشهب
الحق منطقه والعدل سيرتـــه فمن يجبه اليه ينج من تبـــب
نجد المقدم ، ماضي الهم معتزم حين القلوب على رجف من الرعب
يمضي ويذمرنا عن غير معصية كأنه البدر لم يطبع على الكذب [٢٩]
بدا لنا فاتبعناه نصدقـــه وكذبوه فكنا أسعد العـــرب

نلحظ في هذا النص عدد من الألفاظ التي تدل على الإنارة والضوء منها: (شهاب ،نور، مضيء) هذه الصور المعنوية التي جاء بها الشاعر تقابلها صورة مادية(حسية)وهي (البدر)وما لهذه اللفظة من مدلول في نفس العربي وهو الوضوح والإعجاب به ليزاوج ويجمع بين هذه الصور ليؤكد الشمولية التي يتصف بها الرسول محمد ﷺ . وقد جاء في النص الشعري بما يتصف به القائد من صور(الحق ،العدل ، العزم) وهي من الصور السياسية التي يجب أن يتحلى بها القائد في حكم رعيته ، إذاً النص فيه من الصور الكثير التي جاء بها الشاعر ليضفيها على الرسول. وتطالعنا كذلك لامية كعب بن زهير حينما قال[٣٠]:

أنبئت أن رسول الله اوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذي اعطاك نافلة الـ ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل

.....

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

فقد صور خلق الرسول الكريم محمد ﷺ في العفو والسماحة والخلق العظيم (وهنا نلحظ الشاعر يمدح الرسول بالعفو وهذا من شيم الكرام ، هو لاشك واجده عنده ، ويعتذر عما بدر منه قبل أن يفد على الرسول، ويشير إلى القرآن الكريم ، وإلى الرسالة العظمى التي حملها النبي إلى العالم كافة) [٣١]، علما بانه كان مهدور الدم (فقدم عليه تائبا مسلما ، ودخل المدينة متنكرا . فلما صلى النبي ﷺ قام إليه ، فقال : يا رسول الله هذا مقام العائذ بك ، أنا كعب بن زهير . فتجهمته الأنصار وغلظت عليه لما كان من هجائه رسول الله ﷺ حتى آمنه) [٣٢]هذه هي صورة الشجاع في العفو الذي لا يجاريه مخلوق على وجه المعمورة (وقرر أن يضع يده في يدي رسول الله ﷺ منيبا معتذرا طامعا بعفو الرسول عنه ورضاه . وصار يمدح الرسول ويصفه بصفات النبوة ويذكر قوته ومهابته) [٣٣]، وإن البيت الأخير يحتمل

أكثر من معنى ،فقد صور الرسول بانه يضيء الطريق بجماله وبهائه فهي صورة مادية حسية، وقد يكون أراد أن يصور ما جاء به من هداية وتبصرة وإرشاد للحق بالنور الذي ينير الدرب للآخرين فهي صورة معنوية ،وقد شبهه بالسيف الذي ينماز بالصرامة والقوة، ولكن هذا السيف كما صوره الشاعر لم يكن عاديا وانما كان من سيوف الخالق (جل جلاله) وهنا بدء الأثر الإسلامي واضحا في شعر الشاعر، ومن الشعراء الذين رسموا صورة الرسول ﷺ قول نوفل بن الحارث [٣٤]:

لعمرك وما ديني بشيء أبيعه وما أنا إذ سلمت يوما بكافر
شهدت على ان النبي محمدا أتى بالهدى من ربه والبصائر
وان رسول الله يدعو إلى التقى وان رسول الله ليس بشاعر
على ذاك أحيا ثم ابعث موقنا وأثوى عليه ميتا في المقابر

إذا الصحابي ابن الحارث اوضح ما يدعو اليه النبي الأمين محمدﷺ من تقوى وهدى وقد علق المرحوم الدكتور خالد عبد حربي على هذا النص قائلا : (فنوفل بن الحارث يؤكد رسوخ إيمانه بعقيدته الدينية الجديدة فهو لن يحيد عنها ولن يرتد حتى لو دفع جراء ذلك ثمنا غاليا بسبب إيمانه العميق برسالة محمد ﷺ تلك الرسالة الداعية إلى التقوى والإيمان بوحدانية الله لا شريك له)[٣٥] ، واستعمل الشاعر الإسلامي الشعر وسيلة لنشر الرسالة السماوية التي جاء بها الرسول الكريم ، وقد تضمن هذا الشعر في كثير منه اقتباسا من القرآن الكريم ، وان البيت الثالث في النص السابق يشير إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَاهُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ [٣٦] ، وهو أن الرسول محمد ﷺ ليس بشاعر وإنما هو مرسل من الله سبحانه وتعالى ليبلغ رسالته ، ويعد هذا تطورا كبيرا في الأغراض الشعرية في عصر صدر الإسلام[٣٧] ، لقد اخذ الشعراء المؤمنون على عاتقهم مهمة حضور الشعر في نشر الرسالة الإلهية (فهذا الأدب اتجه في معظمه اتجاها إعلاميا وسياسيا ودينيا ، فكان عليه أن يقرّر الوقائع ، ويسجّل الأحداث ، ويروج للدعاوي ، ويشيد بالمبادئ ، والتعاليم الدينية ، ويفسرها ، ويحلل ما تنطوي عليه من قيم وأحكام)[٣٨] .

وبذلك وظف الشاعر الإسلامي الشعر من أجل المعتقد الديني الجديد وهو الدفاع عن الدعوة الإسلامية وقائدها النبي الكريم محمد ﷺ ، ومن ذلك قول العباس بن مرداس يوم حنين[٣٩]:

وبنو سليم معنقون أمامه ضربا وطعنا في العدو دراكا [٤٠]
يمشون تحت لوائه وكأنهم أسد العرين أردن ثم عراكا
ما يرتجون من القريب قرابة إلا لطاعة ربهم وهواكا

فالشاعر في بيته الاول صور قيادة الرسولﷺ للقوم أو الجحفل ، وأن بني سليم قد أصبحوا منضوون تحت لوائه فهو القائد والمجاهد والرسول كما صور صحابة الرسول(المجاهدون) وشجاعتهم وقد أصابوا المشركين ولحقوا بهم الأذى فهم كالأسود الضارية، فعندما تكون هذه صورة المقاتل فكيف

بصورة القائد؟ لاشك أنهم استمدوا العزم من قائدهم وأن القائد استمد العزم والقوة من الله(سبحانه وتعالى) فهي صورة حربية سياسية .

وقال حسان بن ثابت يمدح الرسول ﷺ [٤١]:

وقال الله قد ارسلت عبدا يقول الحق ان نفع البلاء

.....

هجوت مباركا برا حنيفا أمين الله شيمته الوفاء

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

الشاعر هنا ذكر الفاظا إسلامية رفده بها المعتقد الديني الجديد منها : أمين الله ، رسول الله ، فضلا عن الصفات والمزايا المتعارف عليها منذ عصر ما قبل الإسلام منها ، يقول الحق ،مباركا ، شيمته الوفاء ، وغيرها من الألفاظ المبثوثة بين ثنايا الأشعار حتى قيل عنه : (إدخال حسان ألفاظا جديدة في الشعر ، هي الألفاظ الإسلامية) [٤٢] إذا هي الفاظ فرضها الدين الجديد وبذلك قد أصبحت هذه الألفاظ رافدا من روافد الشعر التي استقى منها الشعراء وادخلوها في اشعارهم .

قال كعب بن مالك[٤٣]:

تدلى عليه الروح من عند ربه ينزل من جو السماء ويرفع

فقد رسم الشاعر صورة غيبية لجبريل عليه السلام عندما كان ينزل على الرسول بإذن ربه ليبلغه رسالات الخالق العظيم.

القسم الثاني :

صورة الرسول محمد ﷺ في الأشعار التي قيلت عند انتقاله إلى الرفيق الأعلى

عندما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى فان الشعر لم يتوقف ،وانما تأجج بسبب ذلك وأصبحت المنابر يعتليها الشجن بذلك المصاب الجلل (فدعا الشعراء قوافيهم لتعينهم على هول المصاب ، فعيت وجاءت مراثيهم فيه . الا القليل منها . ضئيلة الحظ من الجودة ، فقد أفحم المصاب الشعراء وأعجزهم وأقعدهم عن اجادة الرثاء والتأبين)[٤٤]، إذا المصيبة التي حلت عليهم وعظمتها كانت هي السبب المباشر في عدم نضوج تلك الأشعار فنيا ،كما أن للحالة النفسية التي كان يعيشها المسلمون الأثر البالغ في ذلك .

وإن مما يميز الأشعار التي قيلت في الرسول بعد انتقاله إلى الدار الآخرة انها لم تكن رثاء فقط ،بل فيها من المديح والفخر الكثير وهذا ما تنفرد به صورة الرسول مما يؤكد ان الأشعار التي قيلت لم تكن مصنوعة وانما قيلت عفو الخاطر ، وسوى ذلك أن معظم ما يقال بعد الممات هو رثاء سواء أكان تأبينا أم غيره ، من ذلك ما قالته سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء في رثاء ابيها ﷺ [٤٥]:

قل صبري وبان عني عزائـــي بعد فقدي لخاتم الأنبيـــاء
عين يا عين اسكبي الدمع سحا وبك لا تبخلي بفيض الدمـــاء
يا رسول الإله ، يا خيرة الله وكهف الأيتام والضعفـــــاء
قد بكتك الجبال والوحش جمعا والطير والأرض بعد بكي السماء
وبكاك الحجون والركن والمشعر يا سيدي مع البطحـــــاء
وبكاك المحراب والدرـــس للقرآن في الصبح معلنا والمساء
وبكاك الإسلام إذ صار في النا س غريبا من سائر الغربـــاء
لو ترى المنبر الذي كنت تعلو هـ علاه الظلام بعد الضيـــاء

نلحظ أن السيدة فاطمة تدعو عينيها لسكب الدموع لفقد الرسولﷺ ، ولم تتوقف عند هذا الحد فقد صورت الطبيعة بنوعيها(الصامتة والمتحركة) من سماء ، وجبال ، وطير وغيرها، تبكي على الفقيد لما ينماز به من صفات فهو نصير الأيتام والضعفاء والفقراء ، وكثيرا ما ترد هذه الصورة في الشعر الإسلامي إذ (يحاول الشاعر ترجمة شعوره من خلال عناصر التصوير المستمدة من الطبيعة) [٤٦] ،كما رثته رثاء إسلاميا أي بألفاظ نماها الإسلام منها (خاتم الأنبياء ، رسول الله ، خيرة الله ، بكاك الحجون والركن والمشعر) ، وقد تحدث الدكتور شوقي ضيف عن آثر القرآن في اللغة والأدب فقال : (أنه حول العربية إلى لغة ذات دين سماوي باهر ، وبذلك أحل فيها معاني لم تكن تعرفها من قبله ولا كانت تعرف العبارة عنها)[٤٧] وهي ألفاظ إسلامية مبعثها القرآن الكريم .

إذاً المسجد النبوي بدأ يبكيه لأنه كان يعظ المسلمين ويلقي خطبه فيه ليشرع لهذه الأمة ما يرفع من شأنها وبه تعلو وفعلا أصبحت امتنا الإسلامية في ذلك الوقت لا تضاهيها أمة وذلك لالتزامهم بمبادئ الدين الحنيف .

ولو تأملنا النص لرأينا تكرار بعض الألفاظ من دون حدوث ملل أو رتابة وذلك لأنها جاءت عن طريق عفو الخاطر من دون تكلف أو تصنع، وتدل على صدق العاطفة التي انتابت الشاعر مما حدا به أن يقول ذلك النص .

أما صفية بنت عبدالمطلب فقالت ترثي الرسول ﷺ [٤٨] :

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا وكنت بنا برا ولم تك جافـــيا
وكنت رحيما هاديا ومعلمـــا ليبك عليك اليوم من كان باكيا
فدى لرسول الله أمي وخالتي وعمي وخالي ثم نفسي وماليا
فلو أن رب الناس أبقى (سبينا) سعدنا ولكن أمره كان ماضيا[٤٩]
عليك من الله السلام تحيـــة وأدخلت جنات من العدن راضيا

يتبين لنا في هذا الرثاء للبشير النذير رثاء يحمل من الصفات التي كان يتحلى بها نبي الأمة الرحمة المهداة فهو رثاء ديني معطر بتلك النفحات العظيمة التي جاء بها رسولنا الكريم محمد ﷺ لان (الأدب المأثور عن عصر صدر الإسلام يمثل بوضوح روح الإسلام ، ومدى تأثر المسلمين بأدب القرآن الكريم وبلاغته ، هذا التأثر الكبير الخطير الجليل)[٥٠]كما فدت الصحابية رسول الله بأقرب الناس إليها وهم:(أمها، وخالتها ،وعمها، وخالها، ونفسها ومالها) مما يؤكد عمق المحبة لرسول الله.

وقالت فاطمة رضي الله عنها في رثاء أبيها [٥١]:

وقد رزينا به محضا خليقته صافي الضرائب والأعراق والنسب [٥٢]
وكنت بدرا ونورا يستضاء به عليك تنزل من ذي العزة الكتب
وكان جبريل روح القدس زائرنا فغاب عنا وكل الخير محتجب
فليت قبلك كان الموت صادفنا لما مضيت وحالت دونك الحجب
انا رزينا بما لم يرز ذو شجن من البرية لا عجم ولا عرب
فأنت والله خير الخلق كلهم وأصدق الناس حيث الصدق والكذب
فسوف نبكيك ما عشنا وما بقيت منا العيون بتهمال لها سكب

بدأت السيدة فاطمة بتعداد مناقب النبي ، فصورته بالنور الذي يضيء الدرب للسالكين فيه من خلال ما كان ينزل من الخالق(جل في علاه) من آيات الذكر الحكيم ليهدي الأمة التي عاشت في ظلام دامس فرأت النور بمجيئه وأنكشف ذلك الغطاء فهي صورة مادية يتأثر بها المتلقي كثيرا في ذلك الزمان، وبعد كل هذا انقطع الوحي وجبريل لم يعد زائرا لنا . على لسان الزهراء . وبذلك فقد رسمت صورة غيبية لنزول الوحي ، وانها جاءت بصورتين مختلفتين(صورة الضوء وهي صورة مألوفة والصورة الغيبية التي لم تكن مألوفة)،كما ذكرت بعض أسماء القرآن وهو الفرقان وهو رثاء إسلامي لم يكن له صوت إلا في دولة الإسلام . إن هذه المصيبة عظيمة ومذهلة بذلك المصاب الجلل ، وإن هذه الحال المريضة كما صورتها سيدة نساء العلمين ﷺ سوف تصاحبها وتلازمها مدى الدهر .

وبذلك فقد رسمت لنا صورة من الصفات العظيمة والجليلة لم يكن من البشر ان يحملها إلا رسولنا الأعظم ﷺ وفي ذات الوقت رسمت صورة مأساوية بما أصاب الأمة الإسلامية بفقده .

قالت السيدة فاطمة في رثاء أبيها [٥٣]:

أغبر آفاق السماء وكورت شمس النهار وأظلم العصران
فالأرض من بعد النبي كئيبة أسفا عليه كثيرة الرجفان
فليبكه شرق البلاد وغربها وليبكه مضر وكل يماني
وليبكه الطور المعظم جوه والبيت ذو الأستار والأركان
يا خاتم الرسل المبارك ضوؤه صلى عليك منزل الفرقان
نفسي فداؤك ما لرأسك مائلا ما وشدوك وسادة الوسنان

تتكون الصورة الشعرية في هذا النص من عناصر رئيسة هي: الرسول،(الطبيعة ، الموت، اثنان حسيان والآخر ذهني، وتتمحور العناصر ضمن تصور الشاعر في ثنائية(الحضور/ الظاهر _ الغياب / الباطن) من خلال موضوعة الموت ، الإطار الخارجي للصورة الذي تشكل في مضمون نص رثائي يبين رؤية الشاعر وموقفه من الموت الذي أصاب)(٥٤) الرسول ، ويتشظى من النص معالم الفاجعة الكبرى التي اصابت الأمة الإسلامية لفقد الرسول الأعظم وفي مضمونه لم يكن رثاء نمطيا لأن (الشاعر تجاوز السنن المألوفة التي تركز عادة على ذكر محاسن الميت وتصور مشاعر الحزن عند الإنسان إلى تصوير حزن الطبيعة، إذ أضفى عليها شعورا مماثلا لشعور الإنسان مما أحالها إلى قطع تزخر بالحياة وتمور بالحركة حتى ليصبح بإمكان المتلقي أن يتلمس مشاعر المأساة في كل مظهر من مظاهرها)(٥٥) .

والمرثية تجاوزت فيها السيدة فاطمة عناصر الصورة الرثائية الموروثة عن عصر قبل الإسلام وذلك بفعل تأثير الدين الإسلامي ،فأصبح للرثاء منحى جديد يختلف عنه لما عهدناه في العصر السابق لهذا العصر.

قيل ان هذه الأبيات قالتها السيدة فاطمة بعدما رجعت إلى بيتها لما توفي رسول الله ﷺ وهي(في هذه المرثية الحزينة تشعر بشعور الحنان والعطف ، وهذا شيء خاص ثم تشعر بفقدان هادي البشرية وقد استخدمت الصور البيانية من اغبرار أفاق السماء وتكوير الشمس إظلام العصرين ، وكآبة الأرض ورجفانها ، وبكاء الطور المعظم والبيت والأركان ولا تنسى أن تخبر الجميع عن عظم الخطب بوفاة والدها الرسول . ﷺ . وتعابيرها إسلامية قرآنية ، مزجت بعاطفة الأبناء عندما يحزنون لفقدان الآباء ، ثم فقدان هداة البشرية من الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم) [٥٦] فهي قد صورت الحزن العميق الذي عم السماء والأرض لفقد خاتم الأنبياء والرسل .

والملاحظ على هذا الرثاء أن (اللغة التقريرية شائعة في تلك الرثيات فهي أقرب إلى الاتساق مع الواقع النفسي الكئيب للشاعر ،وتظل المقطوعات أو طابع القصر في القصائد سمة غالبة على الشعراء)[٥٧] ، كما نلحظ الاقتباس القرآني في البيت الأول، إذ اخذت ذلك من قوله تعالى : ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴾ [٥٨]كما اختارت الألفاظ الدقيقة لبيان المعنى ،فلفظة(كورت)في اللغة تعني ذهاب الضوء(٥٩) وبذلك فقد وظفتها للمعنى المراد، كذلك اضفت بعض الصفات الإنسانية على الجماد وهو ما يسمى(التشخيص) من ذلك بكاء الطور ،والبيت وغيرها .

ومن الصور الرثائية التي قيلت في المصطفى ﷺ قول كعب بن مالك[٦٠] :

يا عين فابكي بدمع ذرى لخير البرية والمصطفى
وبكي الرسول وحق البكاء عليه لدى الحرب عند اللقا
على خير من حملت ناقة وأتقى البرية عند التقى
على سيد ماجد جحفــل وخير الانام وخير اللها

له حسب فوق كل الانـا م من هاشم ذلك المرتجى

يتضمن النص صورا متعددة منها(خير البرية، أتقى البرية ، خير الأنام) وهي فضائل معنوية ينماز بها رسولنا الكريم دون سواه من بني البشر، وهي توحي لنا بصور عديدة منها العفة، الطهر، والنقاء ،وتقوى لما يؤديه من فروض ونوافل دينة كإقامة الليل وغيرها وهي صور دينية، أما الصور الأخرى فهي: (سيد، ماجد، جحفل، له حسب) وهي رئاسة القوم وقيادتهم وذو أصل وانتساب عريق وهي من الصور الاجتماعية الموروثة، نلحظ في هذا النص التفجع والحزن الشديد قد بدا واضحا وليس غريبا في ذلك لأن المرثى هو رسول الله ﷺ الذي انقذ البشرية من الضلالة لنرى النور والهداية على يديه الكريمتين فهو خير البرية من عرب وعجم .

واستمر في الرثاء إلى أن قال:

نخص بما كان من فضله وكان سراجا لنا في الدجا
وكان بشيرا لنا منـــذرا ونورا لنا ضوءه قد أضـا
فأنقذنا الله في نـــوره ونجى برحمته من لضـــا

شبه كعب بن مالك الرسول محمدﷺ بصور متقابلة(سراجا ،في الدجى ،بشيرا ،منذرا)كما ذكر الفاظا تدل صراحة على الضوء ومنها: (نورا، ضوءه ،نوره) وبذلك فقد رسم الإنارة وهي الامتثال لأوامر الرسول ونشر مبادئ الدين الإسلامي، فهو كالنور الذي ينير الطريق لسالكيه ،وصورة أخرى مقابلة لها وهي الظلام(الدجا) وهي الأخرى ليس المراد بها الظلمة الكونية وإنما الابتعاد عن طريق الحق والهدى بعدم اتباعه للرسول فهو كالإنسان العمي الذي لايرى شيئا. السراج الذي يضيء فقد ضمن ذلك اقتباسا من قولـه تعـالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [٦١] وقـد أشار في البيت الأخير إلى صورة المسلمين المتبعين لسنته(انقذنا الله في نوره ونجى برحمته من لضا) ،وصورة المشركين الذين لم يتبعوه، فالمسلمون نجاة من تلك النار الحارقة(لضا) وبذلك فقد اشار بصورة غير مباشرة إلى المشركين الذين سيلقون في النا لعدم اتباعهم المنقذ الرسول محمد ﷺ وبذلك فقد بين صورتين متقابلتين(صورة المسلمون وحالهم في الجنة) و(صورة المشركون وحالهم في جهنم) فهي صـورة مرجعيـة دينيـة ،وآخـذ ذلـك مـن قولـه تعـالى : ﴿ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ١٤ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ١٥ ﴾[٦٢] ،فالشاعر قد استقى من القرآن الكريم الألفاظ والمعاني مما يدل على تأثره الكبير به، وقد أصبح بذلك رافدا من الروافد التي نهل منها الشعراء وزينوا أشعارهم وأتحفوها بها ، وهي غالبا ما ترد في تصوير الشعراء لما جاء به الرسول الأعظم من هداية للبشرية لما للرؤيا(الإبصار) من أهمية خاصة ونعمة فضيلة في حياة الإنسان فعن طريقها يعلم ما حوله من فضاءات قد تسره أو تبغضه ،كما قال [٦٣]:

ألا أنعي النبي إلى من هدى من الجن ليلة إذ تسمعونا
لفقد النبي امام الهـــدى وفقد الملائكة المنزلينـــا

فقد جاء بالصورة الغيبية للملائكة التي فقدت بفقد النبي ﷺ ، قال الدكتور سامي مكي العاني: (فكعب بن مالك أكد أن فقده يعني انقطاع الوحي الذي كان يهبط عليه في حياته، وما دام محمد عليه السلام قد انتقل إلى الرفيق الاعلى فلا أمل بعد ذلك اليوم في هذا النور ، الذي كان يعم الكون ، ويشمل العالمين) [٦٤] فهو الذي هدى البشرية وانقذها من الضلال والعمى .وقد أشار في البيت الأول إلى قوله تعال : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾[٦٥] ، فقد ضمن ذلك في شعره ليزين به أشعاره ولكي يكون أكثر تأثيرا في نفس المتلقي .

وقال حسان بن ثابت في رثاء الرسول ﷺ [٦٦]:

وما فقد الماضون مثل محمد ولا مثله حتى القيامة يفقد

في هذا البيت المفرد في محله ،الكبير في معناه صورة تقابلية لشخص الرسول محمدﷺ إذ لا يمكن للدهر أن ينجب مثيلا له وعلى مدى الدهر لاكتمال جميع الصور في شخصه الكريم، وقال المرحوم الدكتور خالد عبد حربي عن هذا البيت : (ولعلي لا اجانب الصواب إذا رشحت بيت حسان بن ثابت في رثاء الرسول ﷺ ليتربع على قمة عرش الرثاء . . . وهو قمة الصدق الحقيقي)[٦٧] فهو تعبير صادق عما يختلج صدر الإنسان من عاطفة قوية تجاه النبي ﷺ.

و قال حسان في رثائه [٦٨] :

بطيبة رسم للرسول ومعهد منير وقد تعفو الرسوم وتهمد
ولا تنمحي الآيات من دار حرمة بها منبر الهادي الذي كان يصعد
وواضح آيات وباقي معالم وربع له فيه مصلى ومسجد
بها حجرات كان ينزل وسطها من الله نور يستضاء ويوقد
معالم لم تطمس على العهد ايها اتاها البلى فالاي منها تجدد

رسم لنا الشاعر صورتان ، صورة الاطلال أو الديار الدارسة المندثرة بعد رحيل أهلها(وقد تعفو الرسوم وتهمد) ،والصورة الأخرى المقابلة لها وهي صورة ديار الرسولﷺ (لاتنمحي الآيات ،معالم لم تطمس على العهد) وهي الباقية والشاخصة وذلك لان المسلمين لم يتركوا تلك الديار أو يهجروها، وإنما استمروا على دراسة السيرة المباركة للرسول الكريم، كما شبه صورة نزول القرآن على الرسول ﷺ بالنور أذ بدأ الشاعر بذكر مدينة رسول الله ﷺ ولكن هذه الديار لم تكن كباقي الآثار الدارسة التي عرفت عند الشعراء في عصر ما قبل الإسلام وحتى شعراء العصر الإسلامي الذين وقفوا على الأطلال فهي حية إذ (كان حسان قد ذكر الرسوم في مطلع مراثيه فأنها رسوم واطلال تختلف عن رسوم الآخرين لأن آياتها خالدة ولكنها في الوقت نفسه تجدد الحزن عليه)[٦٩] ، إذاً هذه الديار ليست كغيرها من الديار التي تصبح أطلالا بعد رحيل اهلها عنها ، فهي ستبقى مشعة ومنارة بدراسة القرآن الكريم وبالسيرة العطرة للرسول فهي لم ولن تندثر وهذا ما نلمسه منذ مئات السنين ، وقال حسان [٧٠]:

يبكون من تبكي السموات يومه ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد
وهل عدلت يوما رزية هالـــك رزية يوم مات فيه محمـــــد
تقطع فيه منزل الوحي عنهـم وقد كان ذا نور يغور وينجـــــد
يدل على الرحمن من يقتدي به وينقذ من هول الخزايا ويرشـــــد
إمام لهم يهديهم الحق جاهـدا معلم صدق إن يعطوه يسعـــدوا
عفو عن الزلات يقبل عذرهـــم وإن يحسنوا فالله بالخير أجـــــود

اعتمد الشاعر في صوره (المعاني التي ألم بها حسان في رثاء الرسول ﷺ كلها من المعاني الإسلامية ؛ اذ يذكر انقطاع الوحي الذي كان ينزل على الرسول بالآيات البينات في أقاصي البلاد وهو إمام المتقين وسيد الأولين والآخرين فهو يقول إن يطيعوا الرسول يسعدوا وهذا مأخوذ من قوله : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) وهو عفو ويقبل العذر من المسيء)[٧١] فهي صور دينية، ويدل على ذلك الألفاظ التي جاء بها وهي : (بكاء السماوات والأرض ، تقطع في منزل الوحي ، ذا نور ، يهديهم الحق) كما نلحظ قد كرر لفظة (البكاء)في البيت الأول ثلاث مرات لإظهار المعنى المراد ،وهو الحزن الشديد الذي رافقه طوال حياته ،وعناصر هذه الصورة هي ، الرسول ، السماوات ، الوحي ،وهي صور حسية وذهنية، واستمر في الرثاء إلى ان قال [٧٢]:

عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدى حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
عطوف عليهم لا يثني جناحـه إلى كنف يحنو عليهم ويمهـــد
فبيناهم في ذلك النور اذ غـدا إلى نورهم سهم من الموت مقصد
فأصبح محمودا إلى الله راجعا يبكيه جفن المرسلات ويحمـــد
وأمست بلاد الحرم وحشا بقاعها لغيبة ما كانت من الوحي تعهد

وانـه قـد اسـتقى معنـى ذلـك مـن قولـه تعـالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٧٣] .

وقد حاول حسان بن ثابت أن يذكر اكثر من صورة في شاهد شعري واحد حين قال[٧٤]:

لقد غيبوا حلما وعلما ورحمة عشية علوه الثرى لا يوســـد

على الرغم من قلة الالفا ظ التي جاءت في الشاهد إلا أن فيه من المعاني والصفات الإسلامية الكثير ولا يستطيع أحد من بني البشر أن يحصي تلك الصفات وقد اعترف بذلك حسان بن ثابت حين قال[٧٥]:

تذكر آلاء الرسول وما أرى لها محصيا نفسي فنفسي تبلد

خاتمة المسك من الأشعار تبين الذهول والحيرة التي انتابت الشعراء في بيان ذلك الجلل العظيم الذي أصيب به المسلمين .

الخاتمة

السيرة النبوية العطرة تحوي من الصور والدروس الشيء الكثير لان شخصية المصطفى ﷺ يعجز القلم عن التعبير عن مكنوناتها واين ذلك من أمام مدح الله تعالى فلو كان شيئاً اعظم من قوله تعالى: (وإنك لعلى خلق عظيم) ،لمدحه به ولكن هذه الصفة هي منتهى كل شيءٍ فلا يمكن لبني البشر بعد ذلك أن يصفه ، وقال سبحانه وتعال: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فهو الرحمة المهداة من الباري عز وجل إلى هذه الأمة لينقذها من الضلالة وليجعل لها مكانة تضاهي به الأمم الاخرى .

فقد تناول الشعراء بعض تلك الصور وزينوا بها أشعارهم في المديح والفخر والرثاء معطرة بصفات إسلامية لم يكن للشعراء سابق عهد بها وهي كما جاءت في متن البحث .

استمر الشعراء في التغني بالمديح والفخر بعد انتقال الرسول محمدﷺالى الدار الآخرة وهذه الصفة لا توجد عند جميع المرثيين ،إذ يبين الشعراء في المرثيين (عدا الرسول) بعد مماتهم رثاء فقط ،وهذا ما انمازت به الأشعار التي قيلت في الرسول.

استعان الشعراء في تصوير صفات الرسول بالفنون البلاغية ومنها ، التشبيه، ،والتشخيص ،وتكرار بعض الألفاظ لبيان المعنى المراد إيصاله الى المتلقي .

ذكر الشعراء بعض الصفات الغيبية وهي انقطاع الوحي عن الرسول ،كما ذكروا بعض الصفات الخلقية والخلقية له.

كما صوروا بعض الصفات الاجتماعية والسياسية لشخص الرسول الكريم ليزينوا بها أشعارهم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا الكريم محمد وعلى اله وصحبه أجمعين .

قائمة المصادر والمراجع والهوامش

القرآن الكريم .

(١) تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، علي بن محمد بن أحمد بن موسى ابن مسعود ، أبو الحسن ابن ذي الوزارتين ، الخزاعي(ت٧٨٩هـ) ،تح: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢ ،١٤١٩هـ: ٨٢٦ .

(٢)لسان العرب ،لابن منظور(ت٧١١هـ)المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، مادة :صور، وتاج العروس من جواهر القاموس، محب الدين مرتضى الزبيدي(ت١٢٠٥هـ)دار صادر، بيروت، مادة :صور.

(٣)ديوان حميد بن ثور الهلالي وفيه بائية أبي دؤاد الإيادي، تحقيق عبدالعزيز الميمني، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة،١٩٥١ م، الناشر الدار القومية للطباعةوالنشر،القاهرة،١٩٦٥ م :١٦.

(٤)الحيوان، لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(ت٢٥٥هـ) تحقيق، عبد السلام محمد هارون، مطبعة البابي الحلبي،مصر،ط١ ،١٩٤٣م:١٣١/٣ .

(٥)بناء الصورة الفنية في البيان العربي "موازنة وتطبيق" ، د. كامل حسن البصير ،مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٧ م:١٧٨.

(٦) صورة الخليفة في الشعر الأموي، د. صالح محمد اريديني، دار الحوار للنشر والتوزيع،سوريا،ط١، ٢٠١٢م :١٢.

(٧) الصورة الشعرية، سي، دي ،لويس، ترجمة: أحمد نصيف الجنابي وآخرين، مراجعة: عناد غزوان، دار الرشيد للنشر، بغداد،١٩٨٢ :٢٣.

(٨) الصورة الشعرية في الغزل العذري، د. دلال هاشم كريم الكناني، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، ط١ ،٢٠١١م :٢٥.

(٩)ديوان أبي طالب بن عبدالمطلب ، صنعة ، علي بن حمزة البصري التميمي (ت٣٧٥هـ) ، تحقيق ، الشيخ محمد حسن آل ياسين ، الديوان يخلو من مكان وسنة وتاريخ الطبع : ٦٨ .

(١٠)صورة الخليفة في الشعر الأموي: ٨٠.

(١١)ديوان كعب بن مالك الأنصاري، دراسة وتح: سلمي مكي العاني، مطبعة المعارف ،مكتبة النهضة ، بغداد، ط١ ،١٩٦٦: ٢٢٤ .

(١٢)الصافات ،الآية: ٣٦.

(١٣)ديوان ابي طالب: ٧٩ .

(١٤)الحريبة : المال .

(١٥)ديوان أبي طالب : ٨٩ .

(١٦) صورة الخليفة في الشعر الأموي :١٩.

(١٧)سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٧.

(١٨)طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي(ت ٢٣١هـ) قرأه وشرحه، محمود محمد شاكر ، دار المدني بجدة ، مطبعة المدني ، مصر ،١٩٨٠م :٢٢٥/١.

(١٩)ديوان عبدالله بن رواحة الأنصاري الخزرجي ، شاعر الرسول ﷺ ، دراسة ، جمع ، تحقيق ، د. حسن محمد باجودة ، مطبعة السنة المحمدية ، مكتبة دار التراث ،القاهرة ، د. ط ، ١٩٧٢م : ٩٣. ٩٤.

(٢٠) صورة الخليفة في الشعر الأموي:٢٣.

(٢١)ينظر شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ، يحيى الجبوري ، منشورات مكتبة النهضة ، طبع في مطابع الإرشاد ، بغداد ، ط١٩٦٤،١م:٨٨.

(٢٢)ديوانه: ٩٦.

(٢٣)ديوان العباس بن مرداس السلمي ، جمعه وحققه ، د . يحيى الجبوري ، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة ، دار الجمهورية ، بغداد ، ١٩٦٨م : ٥٠ .

(٢٤) سورة الكهف ،الآية:٦٠

(٢٥) ديوان العباس بن مرداس :٩٣ . ٩٤.

(٢٦) كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية ، للشيخ أبي حاتم أحمد بن حمدان الرازي (ت ٣٢٢هـ)عارضه بأصوله وعلق عليه ، حسين بن فيض الله الهمداني ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ،صنعاء ،ط ١ ، ١٩٩٤م : ٣٤٨.

(٢٧)الترغيب والترهيب في شعر صدر الإسلام ، د. شاكر محمود عبدعلي ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان ، ط ١، ٢٠٠٥هـ : ٥١ .

(٢٨)ديوان كعب بن مالك الأنصاري : ١٧٤ . ١٧٥.

(٢٩) يذمرنا : يحضنا ويدفعنا ، لسان العرب.

(٣٠)شرح ديوان كعب بن زهير ، صنعة الإمام أبي سعيد الحسن بن الحسين بن عبيدالله السكري ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، ١٩٥٠م: ١٩. ٢٣ .

(٣١)أدب صدر الإسلام ، د. واضح الصمد ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ،ط١ ،١٩٩٤م :١١٨.

(٣٢)الزينة في الكلمات الإسلامية : ١١٣ .

(٣٣)في الشعر الإسلامي والأموي ، د . يحيى الجبوري ، دار البشير ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط ١ ، ٢٠٠٥م : ٦٩ ، وينظر الالتزام الإسلامي في الشعر ، ناصر بن عبدالرحمن الخنين ، دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام ، الرياض ، ط ١ ،١٩٨٧م :١٤٤.

(٣٤) الاصابة في تمييز الصحابة ،ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) ،نسخة مصورة عن النسخة المطبوعة سنة ١٨٥٣م، في كلكتا ،دار الكتب العلمية ،بيروت: ٢١٧/٢.

(٣٥)فضائل الشعر العربي القديم ، أ .د. خالد عبد حربي الجنابي ، مطبعة البراء، سامراء ،ط ١ ، ٢٠١٠ :١٤٥.

(٣٦)سورة الحاقة ،الآية :٤١.

(٣٧)المدينة في صدر الإسلام (الحياة الأدبية)، د. محمد العيد الخطراوي ،مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق سوريا، ط١، ١٩٨٤م:٥٧.

(٣٨)الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي(١هـ . ٤٠هـ) دراسة وصفية نقدية ،د. حبيب يوسف مغنية ،دار ومكتبة الهلال، بيروت لبنان، ط١، ١٩٩٥م:١١.

(٣٩) ديوانه:٩٥.

(٤٠) معنقون : مسرعون .دراك :متتابع ، لسان العرب.

(٤١)شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ضبط الديوان وصححه عبدالرحمن البرقوقي ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، د . ط ، ١٩٨٠م : ٦٢ . ٦٤.

(٤٢) عصر القرآن ، محمد مهدي البصير ، مطبعة العاني ، بغداد ،ط ٢ : ١٠٠ .

(٤٣)ديوانه:٢٢٤.

(٤٤) شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه : ٣٠١ . ٣٠٢ .

(٤٥) ديوان فاطمة الزهراء عليها السلام ، صنعة وتحقيق ، كامل سلمان الجبوري ، مؤسسة المواهب للطباعة والنشر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٩م : ٢٣ .

(٤٦)صورة الخليفة في الشعر الأموي :٣٠،وينظر دراسات في الأدب الإسلامي ، د. سامي مكي العاني ، المكتب الإسلامي ، ١٩٧٥م :١٥٤.

(٤٧) تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي ، د، شوقي ضيف ،طبع بمطابع دار المعارف ،القاهرة ، ١٩٨١م : ٣٢.

(٤٨)شاعرات العرب ، جمع وتحقيق ، عبد البديع صقر ، منشورات المكتب الإسلامي ، ط ١، ١٩٦٧م :٢٠٤ . ٢٠٥ .

(٤٩) يبدو للباحث : نبينا .

(٥٠)الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام ، د . محمد عبدالمنعم خفاجي ، دار الكتاب اللبناني ، مكتبة المدرسة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٤م : ٤٣.

(٥١)ديوانها : ٣٦.

(٥٢)الضرائب: السجية، لسان العرب .

(٥٣)ديوان فاطمة الزهراء عليها السلام : ٥٣ . ٥٤.

(٥٤)ينظر صورة الخليفة في الشعر الأموي :٣٤ .

(٥٥)المصدر السابق نفسه: ٣٤.

(٥٦)الرثاء في الشعر العربي أو جراحات القلوب ، د . محمود حسن أبو ناجي ، منشورات دار ومكتبة الحياة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٢هـ :١١٤ . ١١٥.

(٥٧)قضية الالتزام في الشعر الأموي ، د . مي يوسف خليف ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، د. ط ،١٩٨٩م: ٢٤٤ . ٢٤٥ .

(٥٨)سورة التكوير ،الآية:١.

(٥٩)ينظر لسان العرب ،مادة :كور .

(٦٠)ديوان كعب بن مالك الأنصاري : ١٧٣.

(٦١) سورة الأحزاب ، الآيتان : ٤٥ . ٤٦ .

(٦٢)سورة المعارج ، الآيتان : ١٤ . ١٥ .

(٦٣)ديوان كعب بن مالك:٢٨١.

(٦٤)دراسات في الأدب الإسلامي :١٥٥. ١٥٦ .

(٦٥)سورة الاحقاف، الآية:٢٩.

(٦٦)شرح ديوانه : ١٥١.

(٦٧)أوابد الشعر العربي حتى القرن الرابع الهجري ، أ. د . خالد عبد حربي الجنابي ، مكتبة ومطبعة المربد ، سامراء ، ط ١ ، ٢٠١٠ م : ٣٤ .

(٦٨) شرح ديوانه : ١٤٥ .

(٦٩) الأمالي في الأدب الإسلامي ،د. ابتسام مرهون الصفار ،دار الحرية للطباعة والنشر ، بغداد ،١٩٩١: ٤٩.

(٧٠) شرح ديوانه : ١٤٨ . ١٤٩ .

(٧١)الرثاء في الشعر العربي أو جراحات القلوب : ١١٣.

(٧٢)شرح ديوانه : ١٤٩ . ١٥٠ .

(٧٣)سورة التوبة ، الآية : ١٢٨.

(٧٤)شرح ديوانه: ١٤٧ .

(٧٥)المصدر السابق: ١٤٦ .